عبر من قصص القرآن الكريم

أصحاب الجنة

بقلم

إبراهيم يوسف نصير

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

أصحاب الجنة.– الرياض.

٣٥ ص، ١٧X ٢٢ سم – (عبر من القرآن الكريم)

ردمك: ٦ – ٩٩٤ – ٢٠ – ٩٩٦٠

١– قصص القرآن أ – العنوان ب – السلسلة

ديوي ٢٢٩,٥ ٢٢/١٥٣٦

ردمك: ٦– ٩٩٤ – ٢٠ – ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٣٦

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشـــر

مكتبة العبيكان

الرياض – العليا – طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ١٧ - ٣٣]

مقدمة

مما لا شك فيه أن الجود من أهم الصفات التي تذهب الأحقاد، وتوحد القلوب، وتقوي الروابط بين الناس، وهو من التكافل الاجتماعي، وهذا يؤدي إلى قوة الأمة، وتلاحم صفوفها.

وفي المقابل نجد البخل من الصفات السيئة التي تورث الأحقاد بين الغني والفقير، وبالتالي تمزق الكراهية روابط الأمة، كما أن الشح دليل على اعتزاز البخيل بماله، واستغنائه بثروته، ومن هنا يعيش الإنسان في ذهول عن واهب النعم الحقيقي وهو الله رب العالمين.

ولا ريب أن من يمنع حق الفقير ويبخل بماله عن المساكين، مؤكداً أن ذلك من الحرص على المال فسوف يجلب بهذا السلوك غضب الله سبحانه وتعالى، ويتعرض لعقابه في الدنيا قبل الآخرة.

وحول هاتين الصفتين تدور أحداث هذه القصة القرآنية، حيث تعالج ما يمكن أن يغرس حب الجود في القلوب، وبغض البخل فيها، وهذا كله يتم بأسلوب حواري جميل ليبلغ غايته في تربية النفوس وتهذيبها وحثها على التحلي بالكرم والجود والبعد عن البخل والشح.

وهي تغرس حب العطف على الفقراء ومد يد العون لهم، فالمنفق يخلف

الله عليه، والممسك يتلف الله ماله.

فهيا نعيش لحظات مع هذه القصة في الصفحات الآتية

هذا وبالله التوفيق.

obeikandl.com

البداية:

تبدأ القصة بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾. فمن هم المقصودون بهذا الابتلاء؟ وبماذا ابتلاهم؟ وما نتيجة هذا الابتلاء؟ يتفق لمفسرون على أن المقصودين بهذا الابتلاء هم أهل مكة، والابتلاء الاختبار. وقد بتلاهم بإعطائهم الأموال الكثيرة، وأرسل إليهم محمداً ﷺ رحمة لهم وللناس جميعًا فهو أعظم نعمة من الله؛ لأنه يدعوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، كان الواجب عليهم أن يشكروا ولا يبطروا، وأن يؤمنوا ولا يكفروا؛ ولكنهم بطروا وعاندوا وكذبوا وآذوا رسول الله ﷺ، فعاقبهم الله بالجوع والقحط، وهذا عقاب في الدنيا كما حدث لأصحاب الجنة.

*** من هم أصحاب الجنة؟**

ذكر بعض السلف – كما جاء في تفسير ابن كثير – أن هؤلاء كانوا من أهل اليمن، من قرية اسمها «ضروان» على بعد ستة أميال من صنعاء، وهم من أهل الكتاب، وقد خلف لهم أبوهم هذه الجنة الوارفة، ثمرها كثير، وأشجارها ظليلة، وأزهارها نضيرة، وكان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة. والآن نستعرض أحداث هذه القصة في الصفحات التالية:–

عادة يومية:

شيخ كبير تعود كل صباح أن يدور في جنبات حديقته، يملأ نظره بثمارها اليانعة، وأزهارها الفواحة، يستنشق من شذاها، ويشنف أذنيه بتغريد البلابل والأطيار فيها؛ فيسجد لله شكراً على أنعمه الوافرة، وعطائه الكثير، ثم يدعو هذا الشيخ ربه أن يجنبه طغيان المال، واستعلاء الغنى، وأن يحميه من فتنة الدنيا وزهرتها، وأن يبعد عنه وسوسة الشيطان، وأن يحبب إليه العطاء، وأن يبارك له في حديقته حتى يؤدي حقوق الفقراء والمساكين، وأن يلبي نداء المحتاجين، من نعم الله التي منحه إياها، وأن يسعد قلوب الفقراء والمساكين بثمار هذه الجنة كما يسعد هو وأبناؤه بها.

يوم العطاء:

وتتوالى الأيام وتمر الليالي، وفي صباح ذات يوم يرى الشيخ جنته وقد آتت أكلها، وطابت ثمارها، وحان وقت حصادها، فيدعو البستاني وأعوانه ليقوموا بقطف الثمار وجني المحصول وجمع غلتها، وهنا يفد إليه الفقراء والمساكين كما عودهم في كل عام، فهم يفرحون بهذا اليوم الذي يحفظون موعده؛ لأنهم سيأخذون نصيبهم من هذه الجنة كثيرة الخير والثمار، سينالهم من خيراتها ما يكفيهم وزيادة.

يستقبلهم الشيخ الكريم بالبشاشة والترحاب، يشعرهم بأنهم أصحاب حق معه في هذه الجنة وليسوا أصحاب حاجة، يحفظ بذلك ماء وجوههم، ويراعي كرامة أنفسهم، ثم يعطيهم نصيبهم وافراً: هذا يملأ وعاءه، وذلك يحمل في ثيابه، ولهم بعد ذلك ما أخطأه المنجل، وما تركه الحاصد، وما تناثر بين الأشجار رزقًا حلالاً طيبًا.

جرى الشيخ على هذه العادة كل عام، حتى عُرف هذا اليوم بين أهل القرية من الفقراء وغيرهم بأنه يوم العطاء، يوم الخير الوافر الذي يعم أهل القرية، يرجع هؤلاء وألسنتهم تلهج بالدعاء لهذا الشيخ الكريم بالخير وعظيم الأجر، قلوبهم ملئت بحبه، وألسنتهم تتحدث بكرمه، ونفوسهم قانعة بما أوتوا من رزق الله يفرحون له بنعمة الله عليه بل ويسألون الله له المزيد، وهكذا يكون المؤمن.

المعارضة الشريرة:

لم يطق أبناء الشيخ هذا التصرف من أبيهم عندما رأوا مال أبيهم يوزع على الفقراء والمساكين، لقد رأى الأبناء أن هؤلاء الفقراء ربما كانوا أكثر من الأبناء تمتعًا بجنة أبيهم؛ من هنا تحرك الحقد في قلوبهم على هؤلاء وأخذ الأبناء في معارضة أبيهم وجاءت هذه المعارضة على النحو التالي:-

بادر أولهم بقوله: إنك يا أبي تبخسنا حقنا بما تنفقه من جنتنا هذه على

الفقراء، وما تعطيه لكل محتاج، ونحن نشعر بأنك تضيق علينا بهذا التصرف.

ثم قام الثاني وقال: يا أبت لو سرت في هذا الطريق، واستمر هذا الإنفاق والعطاء من هذه الجنة فإنك لن تبقي فيها شيئًا، ولن يكون لدينا مال؛ وبالتالي فلن تخلف لنا ضرعًا ولا ثمرًا، وسوف نصبح بعدك فقراء نستجدي الناس في قريتنا، ونمد أيدينا لطلب الإحسان، ونتكفف الناس؛ فهل هذا يرضيك؟

وهمّ ثالث بالكلام، لكن الأب أشار إليه أن يصمت، ثم تأمل في وجوههم وقال لهم: إنكم مخطئون في تفكيركم هذا، وهذا وهم لا أساس له، وسوء تقدير منكم.

يا أبنائي يجب أن تعلموا أن هذا المال الذي تريدون أن تتحكموا فيه، وتستأثروا به لأنفسكم، ليس مالي أو مالكم، وهذا البستان ليس ملكي حقيقة أو ملككم أنتم، إنما هذا المال مال الله منحني إياه، وهذا البستان هو من فضل الله ونعمته علينا وقد زاده الله خيرًا وبركة طالما أنفق منه على عباد الله الفقراء والمساكين فهؤلاء لهم حقهم ولأبناء السبيل حقهم وللعافين حقهم، وللبهائم والطيور طعامها وما فضل بعد ذلك فهو لكم ولي وتأكدوا يا أبنائي أن هذا الباقي كله بركة وخير لكم.

وطبعًا هذا ما فعلته وعودته الفقراء، وبذلك أكون قد أنفذت فيه حكم الله، والمال بهذا يزكو، وعلى هذا النحو من الإنفاق يزيد، وتلك خطة درجت عليها

شابًا والتزمتها رجلاً وما زلت عليه كهلاً، فكيف تطلبون مني أن أتركها اليوم بعد أن قرب رحيلي عن الدنيا، وبعد أن حنت ظهري الشيخوخة.

مهلا أيها الأبناء، فها أنتم ترون شعري قد ابيض، وجسمي قد نحل، وعودي قد ذوى، والأسقام أخذت طريقها إلى جسمي، ولن أعيش طويلا فما هي إلا أيام حتى ألقى الله، وسوف ترثون هذا البستان والمال والنعم وكل شيء، إني موصيكم: اعلموا يا أبنائي أنكم بين طريقين في هذه الحياة: إن أنفقتم من مال الله ورزقه لكم فإن الله وعد منفقًا خلفا، وإن بخلتم واستغنيتم فإن الله أنذر ممسكاً تلفًا ولله أمره في خلقه وهو بالغه. هذه وصيتي لكم فكونوا على سيرتي بي هذا البستان تسعدوا في الدنيا والآخرة.

وفاة الشيخ:

وتمر أيام قليلة، وتحاصر العلل والأسقام ذلك الشيخ الطيب ولم يمكث طويلا حتى حان الأجل ولفظ الشيخ آخر أنفاسه، وانتقل إلى الدار الآخرة، وفرغ من سؤون الناس وتعب الحياة، ذهب الشيخ حميداً حزن عليه هؤلاء الفقراء الذين كانوا يحظون بعطفه وإحسانه.

المؤامرة الدنيئة:

ومضت الأيام سراعًا، وتهيأت الحديقة للجني، ودنت ثمارها للقطف، وبدأ

الفقراء يتطلعون إلى نصيبهم في الثمر، وينتظرون حقهم في خيرات هذه الحديقة كما عودهم صاحبها كل عام، وكما هو دأبهم كل سنة.

في هذا الوقت اجتمع الأبناء يديرون الرأي، ماذا سيفعلون وقد حان قطف الثمار وجمع المحصول ولا بد أن نتخذ لنا رأيا في هذا.

قال أحدهم: إن أبانا كان رجلا طيبًا يفرط في ثمار حديقته ولم يفعل لنا شيئا، ولم يدخر لنا ثروة من هذه الجنة ولا بد من وضع حد لهذه التصرفات التي أضاعتنا طوال هذه السنين الماضية.

– وقال آخر: من الآن فصاعداً لم يعد في البستان حق لسائل أو فقير، ولم تصبح هذه الحديقة مقصداً لابن السبيل، ولا مأوى لمحتاج، فنحن أولى بثمارها، وأحق بمحصولها من غيرنا، وليأخذ كل منا نصيبه منها ويثمره إذا شاء، ويخزن منه ما يشاء وهكذا نكون أحراراً في محصول هذه الجنة؛ فهو حقنا وحدنا وليس لأحد فيه حق أو نصيب. واستمر قائلا:

إننا إذا فعلنا ذلك علا شأننا بين أهل القرية، وزاد مالنا وأصبحنا بينهم من الأثرياء، وكفانا تبذيراً لأموالنا، وضياعًا لخيرات حديقتنا، كفانا صبراً على ما كان يفعله أبونا من تبديد لأموالنا وثمار حديقتنا وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين وكأنهم شركاء معنا فيها، والرأي عندي أن نقوم بجمع المحصول ولا نعطي منه أي فقير أو مسكين شيئًا.

– فرد عليه الأول قائلا: ولكن كيف لنا ذلك؟ والفقراء والمساكين يعرفون موعد الحصاد، وهم جاهزون الآن للحضور إلى الحديقة لأخذ نصيبهم من المحصول كما عودهم أبونا، ولو ذهبنا صباحًا مع ذهاب الناس لأعمالهم فسوف يروننا ويأتون معنا، فما الحل في هذه المشكلة، نحن نريد جمع المحصول دون علمهم حتى لا يحضروا إلينا ونحن نجمع الثمار؟

– فقال له الثاني: الأمر سهل، نذهب مبكرين قبل أن يستيقظ الناس من نومهم في غبش الفجر بحيث يطلع علينا ضوء الصباح ونحن في حديقتنا نجمع محصولنا، وساعتها لن يرانا أحد، ولن يعلم الناس عنا شيئا، وبهذا يكون المحصول لنا وحدنا وليس للفقراء والمساكين، فما رأيكم؟

– وهنا يأتي صوت الحق والعدل والحكمة من أخيهم الأوسط – وكان أقربهم إلى أبيه في الطباع والأخلاق، وأقرب إلى الخير وصنع المعروف في الناس – يا إخواني إنكم بهذا العمل السيء، وهذه النية الخبيثة، وهذه المؤامرة الدنيئة تقدمون على أمر تظنون فيه الخير لكم، ولكنه يحوي الشر في طياته، وتحسبون فيه نفعكم ومصلحتكم، ولكني أرى فيه الشر الذي سيقضي على بستاننا من جذوره. واستمر في نصحه لهم قائلا:

يا إخواني لا تخالفوا عادة أبيكم، ولا تخرجوا عن فعله، وسيروا على نهجه

ففيه الخير لنا جميعًا، وقد عشنا في نعيم طيلة سنوات حياتنا السابقة، وحديقتنا تؤتي ثمارها كل عام بأمر الله فتكفينا وتزيد، وتكفي الفقراء حاجتهم، ولو حرمتم الفقراء ومنعتم حق المساكين فلن تأمنوا شرهم واعتداءهم عليكم.

إن هؤلاء يرون في هذا العطاء حقًا لهم، ورتبوا حياتهم على ذلك، ولو فعلتم ذلك فسوف تخربون عليهم حياتهم، ولن يكون أمامهم إلا الثورة عليكم، والعدوان للانتقام منكم، فامنحوهم حقهم، واذهبوا مذهب أبيكم فى إرضائهم، واعلموا أن ما تبقى بعد ذلك سوف يبارك الله فيه، ويجعل لكم فيه خيرًا كثيرًا.

كان هذا صوت الحق والحكمة، فهل استمعوا واستجابوا؟

لا لقد عميت القلوب عن الحقيقة، وصمت الآذان عن سماع الرشد والعدل، واستحكم الشر في نفوسهم فصاحوا في وجهه:

– يا أخانا لا تقترح علينا شيئا فيما لا تملك، فأنت واحد منا، ولك نصيبك مثلنا وكف عن هذه النصائح، واجعلها لنفسك، وتصرف فيما تملك أنت فقط فبعد أن يأخذ كل منا نصيبه له الحق أن يتصرف فيه كما يشاء، فلن نستجيب لنصحك.

قال لهم: أما إذا رأيتم ألا تسمعوا لقولي، أو ترغبوا في نصحي، فقوموا إلى صلاتكم فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقد يشرح الله صدوركم ويهديكم إلى الحق، ولعلها ترقق قلوبكم على هؤلاء الفقراء والمساكين فلا تحرمونهم حقهم.

ولكنهم ما استمعوا ولا أجابوا.

وقبل أن ينفضوا من مجلسهم بيتوا أمرهم، وأقسموا على مكرهم بالفقراء واتفقوا أن يقوموا في غبش الفجر، قبل أن ينبلج النهار ويفارق النوم مضاجع الفقراء، ويعمدوا إلى الحديقة لجني ثمارها وتوزيعها فيما بينهم حسب نصبائهم منها.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

علم الله سوء نيتهم، وخبث طويتهم، وما انعقد عليهم رأيهم من حرمان المساكين وأكل نصيب السائل والمحروم، فكان العقاب.

الجزاء من جنس العمل:

لقد بيتوا النية على حرمان الفقراء والمساكين، لقد أقسموا على منع الحقوق عن أصحابها، أرادوا تجويعهم وشقاءهم، والحرمان جزاؤه حرمان، والمنع جزاؤه منع، والجوع جزاؤه جوع وشقاء. وهكذا جاء عقاب الله لهم.

علم الله سوء نيتهم وعزمهم على منع حقوق الفقراء والمساكين، فأرسل إلى

جنتهم ليلاً طائفًا يطوف عليها وهم نائمون؛ فاقتلع نبتها، وأتلف ثمرها، وجفف أوراقها، وأعوادها، هذا البلاء الذي أصاب حديقتهم ليلا فلم يُبقِ فيها شيئا، ولم يترك لها معالم يهتدون بها إلى حديقتهم.

وقبل أن يطلع الفجر والناس نائمون، انطلق الإخوة إلى حديقتهم، يمشون في هدوء حتى لا يحس بهم فقير أو مسكين، أصواتهم خافتة، حديثهم كله همس وإشارات حتى لا يسمعهم أحد من أهل القرية فيعلم مقصدهم، ثم ينتشر خبرهم وهم يريدون أن يذهبوا سرًا كما اتفقوا.

وطلع عليهم النهار وهم على أسوار الحديقة في دهشة وحيرة يتساءلون: أهذه جنتنا التي تركناها بالأمس مورقة الشجر، جارية الماء، دانية القطوف، ثمارها وفيرة وخيراتها كثيرة؟

فقال أحدهم: لقد ضللنا الطريق إلى حديقتنا وبعدنا عنها، فما أظن أن هذه حديقتنا،

وقال آخر: انظر حولك لعلك تجد معلمًا لجنتنا التي تركناها بالأمس في أحسن حالاتها وأطيب ثمارها.

ويجيء صوت الحكمة والحق على لسان أخيهم الأوسط:

يقول لهم أو سطهم – وهو أرشدهم وأعدلهم –: بل هي جنتكم التي

كنتم فيها بالأمس، هي بعينها، ولم نضل الطريق، أو تنحرف بنا المسالك، إننا وصلنا إليها وكيف نضل عنها وقد عرفناها منذ سنوات، عمرنا كله نأتي إليها ونعود منها، ونأكل منها ونجني ثمارها.

لكنكم حرمتم خيراتها، قبل أن يحرم الفقير، مُنِعْتم ثمارها قبل أن تمنعوها عن الفقير، وهكذا يا إخواني جوزينا على سوء نيتنا، وخبث طويتنا، وعلى عزمنا حرمان أصحاب الحقوق، ومخالفة مسلك أبينا، وجاء الجزاء من جنس ما عزمتم عليه، وهذا جزاء كل بخيل شحيح، يستغني بماله عن الناس ويخالف شرع الله، ويخالف أمره بإخراج حق الفقير والمسكين فنظر بعضهم لبعض، وأخذ كل واحد يلوم الآخر على ما بدر منه، ولكن مضى قضاء الله وقدره فيهم، وبقي الأسف والندم، ضاعت الآمال، وبقيت الحسرة تأكل قلوبهم وتكوي نفوسهم، حتى يذوقوا عاقبة كيدهم.

عرض وبيان لآيات الرحمن:

فيما يلي نستعرض بشيء من السهولة توضيح بعض المعاني في هذه الآيات الكريمة وذلك بعد بيان أحداث القصة ﴿**إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ**﴾. أي أن هؤلاء الأبناء حلفوا فيما بينهم على جني ثمار هذه الجنة وما فيها من فاكهة وقت الصباح المبكر حتى لا يعلم بهم فقير أو سائل وذلك ليتوفر ثمرها عليهم وحدهم وأنهم لن يتصدقوا منه بشيء.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ بمعنى أنهم لا يخرجون حق المساكين من ثمر بستانهم، ولم يقولوا ذلك إلا من طمع وبخل، حتى أنهم لم يذكروا المشيئة؛ لأنهم مقدمون على شر.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ جاء العقاب بطارق من أمر الله سبحانه حيث أمر الله بإهلاكها وفناء ما فيها وضياع خيراتها فالله يحكم لا معقب لحكمه، طاف عليها هذا الطائف من أمر الله وهم نائمون، مستغرقون في الرقاد على أمل جني المحصول صباحًا، جاءها أمر الله بعد أن غفلوا عن الله وتناسوا حقوق الفقراء، لا يعرفون عاقبة مكرهم السيء.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي أصبحت فارغة من كل شيء، كأنها بستان قطع ثمره، أو حديقة أخذ محصولها بحيث لم يبق فيها شيء، ولم يظهر لثمرها أي أثر، كأن شيئًا لم يكن بالأمس غضا نديا، وأنها أصبحت سوداء لاحتراقها بغضب الله، أرض لا زرع فيها ولا نبات.

هم لم يعرفوا ما حدث، ولم يعلموا عقاب الله لهم حتى هذه اللحظة ولكن ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾.

في الصباح الباكر والناس نيام نادى بعضهم بعضا وهم لم يشعروا بما جرى

لبستانهم بالليل، اخرجوا إلى زرعكم وأنتم قاصدون قطع ثمار حديقتكم، واكتموا ذهابكم، حتى لا تمكنوا المساكين من الدخلول عليكم، والإتيان إلى جنتكم لأخذ حقوقهم.

وغدوا إلى جنتهم في نشاط وسرعة وجد وقصد وقدرة في أنفسهم، وهم يظنون أنهم بذلك قد تمكنوا من تحقيق غايتهم، والوصول إلى مرادهم، وأنهم سوف يتمتعون بثمرهم كله دون مشاركة أحد لهم، وهنا تظهر الكارثة، ويتبين العقاب.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ إنا لضالون لقد ضللنا الطريق إلى جنتنا. ولكن الصدمة العنيفة أفاقتهم من غيهم، وأرجعتهم لى عقلهم فقالوا: لا لم نضل الطريق فهذه جنتنا هي بعينها، ولكنَّا حرمنا ثمرها بسبب ما صنعنا من نية سيئة وعزم على منع حقوق الفقراء، وكما حرمناهم حقهم، فإن الله حرمنا ثمرها.

فالجزاء – كما قلنا سابقًا – من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ هنا ذكرهم أعدلهم حكما وأهداهم قولا، ذكرهم بما قاله لهم ساعة بيتوا نية الغدر بحقوق الناس، والآن أفلا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم، وسوء قصدكم، عندما عزمتم على حرمان المساكين حقهم من ثمار حديقتنا، أفلا تخافون انتقام ربكم منكم في

الآخرة زيادة على عقاب الدنيا، وبعد أن استبان لهم الرشد من الغي، وعرفوا أن أخاهم العاقل العادل كان على حق عندما نصحهم، فعصوه، ولم يستجيبوا لنصحه، جاء قولهم:

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هنا اعتراف صريح بسوء فعلهم. ورجعوا إلى الحق وعرفوا أن أخاهم كان على حق فيما نصحهم به، وتبين لهم أن منع حق المساكين في الثمر ظلم كبير، ظلموا أنفسهم بعصيانهم وإصرارهم على الشر بعد الوعظ والإرشاد، وظلموا غيرهم بمنعهم حقهم الذي جعله في مال الأغنياء أداءً لواجب شكر النعمة، واعترافًا بعدالة التشريع وقيمة الإحسان.

ولكن هل انتهى الموقف بعد اعترافهم بظلمهم ورجوعهم إلى الله، هنا تظهر الطبيعة البشرية، تلك الطبيعة التي لا تعترف بكل الخطأ ولكنها تلقي بالتبعة على غيرها وهذا ما نراه في ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي: أخذ بعضهم يلوم بعضا على ما كانوا قد أصروا عليه من منع حق المساكين من ثمر جنتهم عند جَنْيِه، وكان الجواب اللائق منهم الاعتراف بالخطيئة والذنب.

ولذا جاء قولهم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ معناه أنهم اعترفوا بتجاوزهم حدود الله، وعزمهم السيء حتى أصابهم ما أصابهم، وقد جاء هذا الاعتراف بعد فوات الأوان، إلا أنهم لم يفقدوا الأمل في رحمة الله.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ نرجو أن يبدلنا ربنا خيراً من جنتنا التي فقدنا ثمرها وشجرها وذلك بتوبتنا إليه، وندمنا على نيتنا السيئة، وقد عزمنا على عدم العود إلى مثل هذه الأفعال السيئة والنوايا الخبيثة.

﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي راغبون في العفو عما بدر منا، وتعويضنا عما فاتنا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن القوم أخلصوا، وعرف الله منهم صدقهم؛ فأبدلهم جنة خيراً من جنتهم التي أمر الله بإحراقها».

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هكذا يكون عذاب كل من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله من نعم، واستغنى بها عن منع حق المسكين، وحرم السائل، ولم يستجب لنداء ذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفراً.

وفي نهاية الآيات الكريمة يبين الحق سبحانه أن هذه عقوبة الدنيا، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأكبر، ولو علموا ذلك لارتدعوا وتابوا وأنابوا إلى الله.

obeikandl.com

الدروس والعبر في هذه القصة

من الأمور المؤكدة أن جميع قصص القرآن تحوي الكثير من الدروس والعبر لكي يستفيد منها أصحاب العقول المفكرة، والبصائر المستنيرة وصدق الله إذ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ فما هي الدروس المستفادة والعبر المستخلصة من هذه القصة؟

١- من المعروف أن الأصل في الجزاء الإلهي أنه في الآخرة وذلك عندما ينتهي الأجل في هذه الحياة الدنيا، وتكمل أعمال الإنسان وينتقل إلى الدار الآخرة؛ فيكون الحساب على أعماله كلها صغيرها وكبيرها.

ولكن مع وجود هذا الأصل؛ فقد مضت سنة الله أن بعض المعاصي قد يعجل الله عقوبتها في الدنيا متمثلاً ذلك في حلول المصائب والنكبات التي يمكن أن نعدها من أنواع العقاب الدنيوي. قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ لقد جاء في تفسير هذه الآية: أن ما أصابكم أيها الناس من مصائب الدنيا كالمرض والنكبات والأحوال المكروهة من قحط وغرق وأشباه ذلك فبسبب معاصيكم التي اكتسبتموها في الدنيا ويعفو الله عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها عاجلاً وقيل آجلاً كذلك.

وعلى هذا فما أصاب أصحاب الجنة (البستان) مثل واضح لعقاب الله في

الدنيا وأن ما حل بهم من ضياع ثمرهم إنما هو بسبب ذنبهم المتمثل في م حقوق الفقراء والمساكين، فلنحذر جميعًا عقاب الله في الدنيا قبل الآخرة.

٢- في المعنى اللغوي: عزم على كذا أي عقد القلب على فعل هذا الأمر وإمضائه؛ وبالتالي إذا عزم الإنسان على فعل الشر وهذا من المعاصي القلبية التي يؤاخذ الله عليها فإنه يحل عليه عقاب الله، ولنا فيما حصل لأصحاب الحديقة من تلف المحصول وضياع الثمار مثل واضح على ذلك؛ لأنهم عقدوا النية على جني ثمر الحديقة في وقت لا يتفطن إليه المساكين؛ فلا يحضرون وبالتالي لن يأخذوا حقهم وذلك بفعل أصحاب البستان، وتنفيذاً لقصدهم الخبيث ولعل ما يؤيد هذا القول ما جاء في صحيح البخاري في حديث رسول الله ﷺ:

«إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه».

هنا علق الرسول ﷺ دخلو النار على الحرص على قتل صاحبه، وهو بلا شك العزم على قتله، وقد جاء في جامع الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري وصححه مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر: رجل أعطاه الله مالا وعلمًا فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل. ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالاً فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته فأجرهما سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته

علمًا فهو لا يتقي فيه ربه، ولا يصل به رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء».

فعلينا أن نلتزم بذلك فلا نعزم إلا على فعل الخير، وأن نجعل نوايانا وعزائمنا مقصورة على الأفعال المشروعة والقصد الصالح حتى ننجو من عقاب الله في الدنيا قبل الآخرة؛ فالقلب العامر بالخير لا يعزم على الشر أبداً.

٣- الشح والبخل سواء، وهما شدة الحرص على الدنيا وحرمان النفس والغير من نعم الله فيها، لقد رأينا كيف أوصل البخل أصحاب الجنة إلى هضم حقوق المساكين، ومعصية الله، أما النتيجة فكانت العقاب العاجل من الله بإهلاك جنتهم وحرمانهم من رزق الله لهم ولغيرهم.

ولأن الشح عمل نفسي ينتج عنه تصرف مضر للإنسان ولغيره؛ لذا يجب على المؤمن مقاومته حتى يكون من المفلحين في حياتهم الدنيا والناجين من عذاب الله في الآخرة يقول الله تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾. فمن أنفق من مال الله، وأدى حقوق الفقراء والمساكين، ومن وصل ذوي الأرحام، وأعان ذوي الحاجات؛ من قام بهذه الأشياء فقد قاوم الشح في نفسه وأصبح من المفلحين.

لقد حذرنا رسول الله ﷺ من البخل فقال: «إياكم والظلم فإن الظلم

ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» أخرجه الإمام مسلم.

لكن يجب أن يكون معلومًا أن المقصود بالمسلم البخيل، هو الذي يمتنع عن إخراج الزكاة، أو الإنفاق على أسرته ووصل ذوي الأرحام وعدم الوقوف مع أصحاب الحاجات أما من أدى كل هذه الواجبات فليس بخيلاً، يؤيد ذلك ما جاء في حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «برئ من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة».

فغريزة البخل عندما تسيطر على الإنسان تورثه خلف العهد والنفاق جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]. إنسان أعطى الله عهدًا وميثاقًا لئن جعله غنيً ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، وعندما استجاب الله له وأعطاه المال الوفير والرزق الكثير لم يوف بما قال، ولم يصدق في عهده مع الله، فأورثه هذا الصنيع الناتج عن البخل نفاقًا استقر في قلبه إلى يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين للحساب والعرض على الله.

ولسنا مهتمين بخلافات المفسرين حول أسباب النزول وفيمن نزلت؛ لأن ما

يهمنا هو ما نثبته من أثر البخل في الإنسان، وإلى أي خاتمة يوصله حتى نتقي هذه الصفة الذميمة ونحاربها في أنفسنا، فلا نضعف أمام بريق المال وحبه فنؤثر البخل على الإنفاق، ومنع الحقوق على أدائها وهكذا.

٤- وجه العبرة التي يجب أن يستفيدها الإنسان من هذه القصة هي أن صاحب الحق عليه أن يثبت على حقه مهما كانت الظروف والإغراءات، يقف عند حقه بالقول والعمل، فيقول ما يراه صواباً وينكر ما يراه خطأ أما العمل فلا يشارك المخالفين عملهم، بل يظل على موقفه، ويمثل هذا الموقف ذلك الأخ الأوسط الذي ثبت على ما يعتقد أنه الحق، وأنكر على إخوانه ما عزموا عليه من فعل سيء، ونصحهم إلى أن هذا فيه هلاكهم، ونهاهم عن الإقدام على هذا الشر، لكنهم لم يسمعوا نصحه، ولم يستجيبوا له، وهو وإن كان ذهب معهم في الصباح الباكر إلى جنتهم على الرغم من عدم اقتناعه بذلك فإنما يفسر هذا بأنه ذهب معهم لكي يثبت لهم بالدليل القاطع صدق نصحه لهم، وأنه كان على الحق وهم على الباطل ولعل هذا ما جعلهم يعترفون له بأنه على الحق وهم على الباطل وهنا طلبوا من الله المغفرة وقبول توبتهم.

إذن ثباته على موقفه مهما حاولوا إقناعه هوالذي يمثل لنا عبرة وعظة يجب علينا أن نسير عليها مهما كانت الظروف، فعدم التفاتهم إلى نصحه لم يثنه عن موقفه، وعلى الرغم من كثرتهم وجدالهم له ومحاولة إقناعه بشتى السبل فلم

يفلحوا في جعله يغير موقفه ويوافقهم على رأيهم، ويبدوا هذا في قوله تعالى ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ فصيغة اللوم بادية والاستفهام الواضح إنما جاء ليقررهم بأ كان على حق. فهلا تمسكنا بالحق وثبتنا عليه قلبنا مهما تعرضنا لإغراءات.

٥- عندما يعترف الإنسان بخطيئته ويقربما وقع فيه من إثم، ثم يبادر بالتو إلى الله فإن الله يغفر له الذنوب، ويمثل ذلك في قصة أصحاب الجنة أنهم عندم وصلوا إلى جنتهم ورأوها محروقة لا ثمر فيها ولا شجر، وقد تأكدوا أنها جنتهم، ذكرهم أوسطهم بما كان منهم، ثم طلب منهم أن يذكروا الله ويتوبوا إليه، وعندها اعترفوا بذنبهم وأقروا بخطئهم، وندموا على ما بدر منهم، وصرحوا بأنهم كانوا طاغين، ثم توجهوا إلى ربهم تائبين منيبين إليه، توجهوا وكلهم رجء في رحمة الله سبحانه وهكذايجب أن يكون المؤمن، إذا وقع في معصية تذكر الله وعقابه، تذكر الوقوف بين يديه فيبادر بالتوبة النصوح والندم على ما كان، ولا ييأس من رحمة الله مهما كان ذنبه ومهما كانت معصيته، يتوجه إلى الله بحدود الرجاء، وينير بصيرته الأمل في عفو الله.

والسنة النبوية الطاهرة تريح نفس العاصي، وتمنحه الثقة في عفو الله وغفرانه فها هو رسول الله ﷺ يقول: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون».

٦- العاقل إذا نصحه أهل الخير، ووعظه أهل العلم والإيمان، عليه أ يستجيب ولا يصم أذنيه، ويغلق قلبه وفكره عن سماع الحق، ولا يجادل في غي

اقتناع فإن النفس البشرية تحتاج إلى من يذكرها ويبصرها بعيوبها بين حين وآخر وأهل الحق دائما مايفعلون ذلك، ولكن علينا أن نمتثل لقولهم، ونستمع بصدق إلى نصحهم.

وفي قصة أصحاب الجنة، يمثل هذا الموقف النصح الذي أبداه لهم أخوهم الأوسط راجيالهم الخير، بصرهم بخطئهم وعرفهم أن هذا طريق شر، وليس وراءه سوى الهلاك والعذاب. نصحهم بما فيه رشادهم ونجاتهم، وزيادة أرزاقهم والحفاظ على ثمر جنتهم عرفهم أن أباهم كان يسير على الهدى والخير ويتبع ما أمر الله به، ويشكر الله على نعمه وخيراته وذلك بإعطاء الفقراء من جنتهم ويزيد في الإنفاق على المحتاجين، وهذا هو سبيل زيادة النعمة، والفوز برضاء الله وزيادة عطائه.

فهلا كنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ومن يقولون لأمر الله سبحانه سمعنا وأطعنا، ومن يسعون لنيل حب الله بالإحسان فالله يحب المحسنين.

نداء ورجاء:

وقبل أن نختم حديثنا عن هذه القصة لابد من نداء يوجه إلى الشباب، فأنتم أيها الشباب رجال المستقبل وعليكم بعد الله يعول في بعث مجد الإسلام وعزته، وإظهار محاسنه ومآثره للعالمين، وبناء أمة لها من الخيرية ما تستحق، ولها من الريادة ما هيأها الله لها، ولن يكون ذلك إلا بالرجوع إلى كتاب الله الكريم نستجلي عبره، ونتمثل أحكامه ومعانيه، ونجعل منها نبراس حياة، ومشكاة

طريق، وعلامات تهدي الحائرين، ليرى الناس أمة صنعها الإسلام كما صنع أجدادهم وجعل منهم نماذج يقتدى بها في مسارب الحياة؛ ليجعل منهم أمة تكافل اجتماعي، وعلم ينير العقول ويكشف أسرار الله في كونه فتزداد القلوب إيمانًا، والنفوس راحة واطمئنانًا، والأرواح طهراً وإخلاصًا.

أما الرجاء فهو الأمل الذي لا يأس معه في إصلاح هذا الشباب، رجاء إلى الله أن يحقق للشباب سبل الخير، وأن يقويهم على نفوسهم، وأن يبعد عنهم الحرص على الدنيا والبخل والاستغناء بما فيها من حال زائل، ونعم تأتي وتروح هذا الرجاء هو الذي مازال يشدنا نحو العلا، ومازال يربطنا بعرى الإسلام، رجاء يبعث في نفوس الشباب الهمة واليقظة، ويقوي عزمهم على خدمة الإسلام والارتباط بكتاب ربهم.

رجاء إذا تحقق وأحسبه كذلك – إن شاء الله – رأينا أمة تقود العالم إلى الخير وتأخذه من حيرته واضطرابه إلى شاطئ الأمان والأمن والسلام.

نرى أخوة تسود، ومحبة تجمع، وعلماً ينير، وحضارة تبعث، ومجداً يعود، وليس ذلك على الله بعزيز.

هذا والله المستعان.

تمت بعون الله.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
لبداية	٩
من هم أصحاب الجنة؟	٩
عادة يومية	١٠
يوم العطاء	١٠
للعارضة الشريرة	١١
وفاة الشيخ	١٣
المؤامرة الدنيئة	١٣
الجزاء من جنس العمل	١٧
عرض وبيان لآيات الرحمن	١٩
دروس وعبر	٢٥
المحتويات	٣٣

obeikandl.com